

حضور المدن السورية وصوتها في سرديات تدميرها قراءة في رواية شهلا العجيلي "سماء قريبة من بيتنا".

*The Presence and the Voice of Syrian Cities in their Narratives of its Destruction - a Reading in
"Shahla Al-Ajili's novel "A Sky Close to Our Home"*

الطالبة: عائشة بوساحة

جامعة الشريف مساعدي سوق أهراس (الجزائر)

a.boussaha@univ-soukahrass.dz

تاريخ النشر: 2022/12/31

تاريخ القبول: 2022/12/14

تاريخ الإيداع: 2022/12/12

الملخص باللغة العربية:

وثقت الرواية العربية التجربة الحربية والأبعاد المكانية للعديد من المدن السورية ، التي عايش تهميش الأبنية وتحفر الشوارع بشظايا الرصاص والقنابل ، والبشر ، وقد رصدت شهلا العجيلي في روايتها "سماء قريبة من بيتنا" التحولات الكبيرة التي حصلت في الزمان والمكان ، لتنقل تاريخ مدينة حلب الثري المنتعش بوجوه الحياة ولمسات الموسيقى والفنون والآداب ، قبل أن تزين سماه صور الدمار واللجوء ، حملت بذلك المكان على أن يجدد ويوسع ودلالاته الفيزيائية لتشمل أبعادا رمزية وأيديولوجية ساهمت في بناء النص الروائي وأعدت تمثيل الماضي ، وحالات الذات ، وعلاقتها بالآخر ، في حالة من التداخل الثقافي العالمي .

كيف حولت الحرب تضاريس المدن السورية ومفاهيم الوطن والهوية ؟ وصنعت مصائر الجماعات البشرية في ظل المأساة الجماعية وصراع الفرد وتوالي أزماته .

الكلمات المفتاحية: المدن السورية ، الحرب ، الرواية السورية ، المكان ،

Abstract :

The Arab novel documented the war's experience and the spatial dimensions of many Syrian cities. Where the buildings were destroyed and the streets were dugged with bullet shrapnel, bombs and humans. Shahla Al-Ajili in her novel "A Sky Close to Our Home" observed the great transformations that have taken place in time and space to convey the rich history of Aleppo's city. It was refreshed with the faces of life and touches of music, arts and literature, before its skies adorned the images of destruction and asylum.

It prompted the place to renew and expand its physiological connotations to include symbolic and ideological dimensions that contributed to the construction of the narrative text and reenactment of the past, self-states and its relationship with the other, in a state of cultural overlap. How has the war transformed the terrain of Syrian cities and the concepts of homeland and the concept of identity? And how has it created the destiny of human groups in the face of mass tragedy, conflict and prolonged crises.

Keywords: Syrian cities. the war. The syrian novel. the place.

1-الرواية السورية والحرب : كثرة الكتاب وتغير مسار الكتابة:

تغيرت معالم الكتابة الروائية في سوريا بعد الحرب ، وتأثرت بالحدث السياسي الأبرز الذي يصطلح عليه بالربيع العربي ، وما أحدثه من هزات عنيفة على مستوى التفكير والتطلعات والأمال ، جعلت المجتمع يعيش حالة من الخذلان والهزائم المتكررة على وتيرة واحدة ، عبّرت عنها أجيال من الكتاب ، رسخ أصحابها معالم جديدة في الحركة الروائية السورية من صحفيين أو شعراء انتقلوا من مجالاتهم المختلفة الى ميدان الكتابة الروائية بعد أن ألحت عليهم مأساة الحرب فلم يتوقفوا عن كتابة معاناتهم في ظل أمنيات الثورة المجهضة التي زلزلت الأفكار وعصفت بكيان السوريين وغيّرت مجرى حياتهم.

لم تكن هذه الحرب الطارئة الحدث الوحيد الذي تفاعلت معه الرواية السورية فقد أثبتت تجاوبها مع التحولات السياسية و الاجتماعية، في أعقاب هزيمة حزيران 1967م حين برزت نصوص كثيرة تندد بالاستعمار وتؤكد تضامنها مع القضية الفلسطينية، انتقلت بعدها الى مراحل من التأثير بالتيارات الغربية والعالمية فانشغلت الرواية بمواضيع متعددة تمس الانسان والمجتمع لكن المأساة السورية كانت على الكتاب أشد وأعتى.

حين فرض النظام الأسدي على الكتاب الانحياز الايديولوجي اليساري ومنعهم من الكتابة الحرة التي تضيئ الواقع كما هو، حاولت أقلام كثيرة تقديم سردية ذاتية عن الأحداث كما عايشوها وتفاعلوا معها. فالكتاب هو شاهد عيان، يقدم شهادته الخاصة عن الحدث وإن كانت الكتابة لا تملك قدرة مباشرة على التغيير وسط ركام الخراب ولا يمكن للكلمة أن تسمع في وسط دوي القنابل والرصاص إلا أن بإمكانها أن تروي للأجيال الجرائم التي ارتكبت وتفصح الجلاذ، وتصير بذلك تعبيراً عن موقف حياتي وشهادة على واقع لا بد أن لا ينتسى، فتحولت الرواية إلى صوت للفرد ضمن المجتمع في علاقته بما يجري حوله من عواصف وانقلابات، يؤرخ الكاتب لنفسه قبل الآخرين ليخلد قصته وقصة عائلته وحارته ومدينته.

وقد تمكن روائيون في هذه الفترة من تمرير أعمالهم بالرغم من التضيق الفكري والحصار السلطوي الذي مورس عليهم فرأينا «القوقعة» لمصطفى خليفة التي تروي أولى تجارب أدب السجون، وأعمال تنبأت بالثورة وبحتمية سقوط نظام ثقافي بأكمله عبر سرود مجازية أو رمزية، كخالد خليفة في «مديح الكراهية» التي منعت من النشر داخل سوريا، و«لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة» التي حفرت بشكل عميق في آليات الخوف والتفكك التي عاشها المجتمع السوري بشكل متواز مع البطش والرغبات المقتولة عبر سرد حكاية عائلات اكتشفت خراب حياتهم وضياح أحلامهم في ظل الأنظمة العربية التي استباححت الفساد وذلك قبل الثورة¹، ومكسور عبد الله في رواية «عائد إلى حلب» و«أيام في بابا عمرو»² حكى عن حال اللاجئين السوريين والكتائب المسلحة المحاربة في سرد عن قصص واقعية لأناس دفعوا ضريبة صمودهم، وآخرين يعانون من القصف والدمار.

انشغلت الرواية بالارتكاز على المجتمع في بنيته الداخلية وتشابك علاقاته ومآل الأحداث فيه، وقد تعددت موضوعاتها بين تصوير مظاهر القمع والاستبداد، ومآلات الثورة، والتشدد الديني، واللجوء، والمنفى، والطائفية ومفهوما الهوية والوطن، خاصة وأن منهم من عانى من التشرد واللجوء والعيش داخل الملاهي والمنافي، كما تعددت تقنياتها فاعتمدت بعضها الأسلوب التقريري والتوثيقي، ولجأ الكثيرون إلى السيرة الذاتية التي تأخذ شكل الشهادات الحية و غاص بعضها في العمق الإنساني ليلتقط بعض صور ركام الحرب موظفا أبرز تقنيات الرواية الجديدة.

واستعاد الروائيون التاريخ السوري المعاصر فعادوا إلى فترات حكم سابقة لإعادة قراءة الماضي وفهم ما آلت إليه حال الوطن ، من نزاعات وانقسامات أودت بحياة الكثيرين وتسببت بلجوء الآلاف الى خارج البلاد خوفا من سوء المصير ، وطرحوا سؤال المدينة في ظلها الحالك ومصيرها القائم بعد كل ما حدث ، ففي رواية "الموت عمل شاق" لخلد خليفة جعل الكاتب من جثة عبد الله السالم مركزاً للحكاية؛ فبنقل حسين وبلبل وفاطمة جثة أبيهم من دمشق ليدفن في العنابية، بناءً على وصيته، تنتقل الجثة عبر سورية من جنوبها إلى شمالها، لتقول إن هذا البلد أصبح مرتعاً للموت. وما تفسخ هذه الجثة على الطريق إلا إشارة إلى تفسخ البلد وخرابه³. وهو ما فعله أيضا خالد خليفة في روايته أو منهل السراج في روايتها "عصي الدم" حين سردت تاريخ مدينة حمص ومأساتها ، و خليل صويلح في "جنه البرابرة" الذي فسّر ما يحدث في المدن اليمنية من مصير مشابه وكتاب كثر أمثال وسمريزك وروزا ياسين حسن ولينا هويان الحسن وشهلا العجيلي كتبت عن الرقة وحلب في روايتها "عين الهر" و"سجاد عجمي" وفي روايتها "سماء قريبة من بيتنا" "صنعت جغرافيا وهوية جديدة للإنسان في للعالم العربي.

إنّ الحرب السورية هي الموضوع الطارئ الذي جرت إليه الأقلام الروائية المعاصرة لما فيه من مأس وويلات أودت ببلد كامل وشعب حلّ عليه الدمار والخراب ، فواجهت تفتت الأوطان بفعل الحروب والنزاعات بإحياء الذاكرة ، وبإعادة سرد الماضي وحكاية المكان النابض بالوجود.

2 استحضار الذاكرة واستعادة الهوية الثقافية:

اقتحمت الرواية عدّة عوالم مختلفة ونقلت أحداث تاريخية مفصلية وتحولات مهمة حدثت في سوريا وذلك بالعودة الى مدينة حلب من القرن التاسع عشر وانتهاءً بيومنا الحالي، لتسرد حكايات متفرقة بين دمشق وعمّان لعائلات مرت على المدينتين ورحلت إلى فضاءات مكانية وزمانية مختلفة تغيرت فيها أوجه الماضي ، ومعالم المدن وهويات البشر والغازهم وأسرارهم.

إن التمسك بالهوية هوسبيل من سبل المقاومة الثقافية التي يؤكد بها المرء وجوده ويتحدى ما يواجهه من صعاب وانقسامات طائفية أو قبلية ، ويتشبث بكلّ ما يوجد في العمق من خصوصيات سلبية كانت أم ايجابية تراكمت عاما عن عام وتاريخ وذاكرة جماعية وعادات وتقاليدها صنعت تميز الذات عن الآخر، لا شك أن هوية الانسان العربي تتغذى من ارتباطها في وعيه بأبعاد حضارية وتاريخية ودينية وسياسية على حد سواء. فتعلقه بما يخزنه ماضيه من انجازات علمية، وفلسفية، وفكرية، وأدبية واستناده على تراثه الخالد يصنع له الضمانة الاقوى للهوية الوطنية والقومية في سعيها وامتدادا عبر الأزمنة الثلاث.

تعتمد الساردة الى استحضار ملامح بلادها الغنية بالثقافة والتاريخ الحضاري في محاولة تثبيت الصورة التي في الذاكرة، بكلّ ما فيها من جمال مورفولوجي، وبما تحتويه من تفاصيل تعبر عن الجمال أو القبح الذي لحقها بعد الحرب. تروي على لسان البطلة جمان بدران ابنة مدينة الرقة السورية، وهي حاصلة على دكتوراه في الأنثروبولوجيا الثقافية، وتقيم في مدينة عمان الأردنية، تلتقي بناصر العامري شاب فلسطيني الذي تقابله على متن طائرة فيتشاركان الحديث عن الماضي الذي يكتشفان فيه صلة جيرة قديمة وعلاقة حب جديدة ومتوهجة بينهما "أعادني ناصر إلى مناطق محبة في ذاكرتي، كنت قد هجرتها، ولم أظن أنني سأستعملها يوماً ... امتد عمان حديثنا الى ساعات، أحيينا فيها روح الماضي، ورائحة الياسمين والعسلية واليزفون، والرطوبة العابقة ببخار مطابخ بيوت محطة بغداد العتيقة، إن ذاكرة مشتركة، لا تعني بالضرورة مشاعر مشتركة، لكن ناصر يشاركني ممتلكات في غاية الأهمية، يشاركني في حلب ذاكرتي الثانية، ونصف هويتي"⁴

حين كانت مدينة حلب تحتضن السهرات الموسيقية الهيجية بمنزل بهجت بك الحفار في أربعينيات القرن العشرين، فراحت تستذكر أيامها الجميلة وتستعيد طفولتها وبراءتها وسعادتها في ربوعها، ليال من الأنس والعزف على العود، في عزف مقام السيكا صافيا في زيارة للموسيقار محمد عبد الوهاب، وإلى إنشاد شهيرة الحفار الطفلة لموشح لابن زيدون لحنه عمر البطش صديق والدها في ذلك المنزل بعيدا عن التقلبات السياسية، والانقسامات الجغرافية "وقفتُ أشيرُ إلى تلك الكرة وراء الزُجاج، وقد غطّى الأزرق اللامع المخطّط بخطوط الذهب جلّ مساحتها، وأصرخُ: الدنيا، الدنيا، أريدُ الدنيا، يسحبني بابا من يدي، ويقول: سنشتري الدنيا من الشام، من الشام"⁵.

وذلك في سياق تعزيز الهوية الثقافية واستعادة بعض ملامحها في الغناء، والرقص بمدلوله الوجودي المقاوم للموت أمام المرأة، وحب الصور العتيقة، والتحف، وكلّ مقتنيات الفن، وتبحث عن استعادة تلك الهويات القديمة رغم تغير الأمكنة وصعوبة عودة تلك اللحظات الصافية "وكأن الساردة تحيلنا - في تلميحات الخطاب - إلى ذلك التماثل بين البحث عن صفاء المقام الموسيقي النادر، والبحث عن فضاء فني يخلص فيه الغناء من التقلبات، والصراعات في علاقات القوى المهيمنة؛ كما تلمح - في بدايات الخطاب إذا - لذلك الفضاء المستقر نسبيا، والمملوء بالغناء الذي يؤكد الهوية الثقافية، وتجدها"⁶.

لا يفرض هذا التمسك أحادية الهوية بالنسبة للفرد ، فالاختلاف بين الأفراد الذين ينتسبون إلى مجتمع واحد لا يقصي الهوية الثقافية بل يعززها ، فتغدو الشعوب المختلفة عرقيا ودينيا مندمجة ومشاركة وذلك ما جسده نقاشات جمعت الفتاة هانية مع البطلة حول رؤية جسد الميت، والاختلاف بين وضعه في كفن أبيض لدى العرب، والمسلمين، وتركه في مكان عال للجوارح في ثقافة والدتها الآسيوية، أو إشارتها الى

قصيدة حب لبوشكين جمعتهما بصديقتها في الجامعة، وإلى البروفسيورة النسوية مارغريت برانتي أو تشبيهه هانية للدكتور يعقوب بجمالين في الأسطورة؛ في دلالة على الانفتاح الحضاري في تقبل الآخر المختلف ذلك أن تاريخ العالم شديد التشابه، وعطب الحرب وجروها تجعلنا أكثر قربا وفهما للآخر، وبإمكان السرد أن يعيد ترتيب الحكاية وإبانة وجه الضحايا عن الجلادين، والمنتصرين عن المهزمين ورواية التاريخ الحقيقي للأطماع السياسية التي صنعت وغيّرت مصائر البشر.

3-المدن السورية في سرديات تدميرها:

للمكان حضور متميز في النص الروائي، فهو أحد أبرز عناصره الفنية، فيه تجري الأحداث وتتحرك الشخصيات وتتفاعل، وتعبّر عن وجهة نظرها، فيتحوّل أحيانا إلى فضاء يستوعب تمازج عناصر العمل الفني، وحامل لرؤية البطل وممثل لمنظور المؤلف وبذلك لا يكون المكان "عنصرًا زائداً في الرواية، فهو يتخذ أشكالا ويتضمن معاني عديدة، بل إنه قد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله".⁷

فهو البنية الأساسية لتشكيل الحدث الروائي، فالشخصيات بوصفها العنصر الفاعل في بناء المحكي، لا يمكنها إلا الارتكاز على الحدود التي يرسمها المكان، بالإضافة إلى حركة الزمان ف"لا يقدم سوى مصحوبا بجميع إحداثياته الزمانية والمكانية، ومن دون وجود هذه المعطيات يستحيل على السرد أن يؤدي رسالته الحكائية"⁸ بذلك يتمكن السارد من خلق شخصياته بلغة خاصة، ما يجعل المكان فضاء محصلا بالدلالات الواقعية والتمثيلية، يأسر القارئ ويخلقان- في انسجامهما معا - لعبة ممتعة تستميله الى الدهشة.

ومن جهة يلعب المكان دورا أساسيا في تحديد هوية الإنسان، ويرتبط جذريا بفعل الكينونة والوجود وفهم الحقائق، يحتويه بفكره ووعيه الاجتماعي والنفسي العاطفي خاصة اذا ما اقترن بوطنه الأصلي، فإعمارها للمكان دليل على وجوده، فهو شرط للوجود الانساني، به يحدد ذاته وهويته ويمارس حضوره وغيابه، ويمثل خلاصة تجاربه الحياتية، ويتعدى ذلك أن يعكس شخصية الفرد في علاقة حميمية أساسها التفاعل المتبادل بين الطرفين " بل إنّ المكان الذي يسكنه الشخص مرآة لطباعه، فالمكان يعكس حقيقة الشخصية، ومن جانب آخر، إن حياة الشخصية التي تفسرها طبيعة المكان الذي يرتبط بها "⁹ فيقدم لنا المكان يد المساعدة في قراءتها وتحليل مختلف أبعادها الفنية.

يحضر المكان على امتداد صفحات الرواية بذكريات جمان عن طفولتها، في شوارع وأزقة حلب والرقعة ودمشق، ويتوزع السرد على مناطق جغرافية عديدة حول العالم فالأب سهيل بدران هو سليل عائلة إقطاعية لديها أراضي شاسعة في منطقة الفرات، بالرغم من دراسته في بوسطن إلا أنّه عاد إلى البلد ليؤسس

عائشة بوساحة / الصفحات: من 157 إلى 165

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

حياته رفقة بناته اللواتي تزوجن خارج البلاد " سلمى " وجود " علقت " جمان " مقيمة في عمّان بعيدا عن أهلها، ولا يستطيعون هم أيضا القدوم إليها.

ترتبط البطلة علاقة وثيقة بمدينة الرقة حتى أنها تشابهها المصير مثلما أصيب جسدها بالسرطان أصيبت الرقة أيضا بالخراب ونهشت الجماعات الإسلامية المتطرفة كل ما احتضنته من آثار حضارية عريقة ، وساهمت أيضا السلطات في تسليمها للتآكل والنسيان تقول جمان " نحن الرقة، ربما هي الطيبة ، والفقر، والتجهيل، والتميش، والفساد والإفساد، ذلك كلّ ولد هذا العنف، وفتح سكة الهروب إلى منقذين لم يختبروا بعد. .. الرقيون يصبحون على بعضهم بالعتابا والمواليّا، وينامون على سيرة أبي هلال المهلهل، كيف سيتحوّلون إلى مجتمع طالباني؟ النساء لن يتحملن ذلك، لن يحزرن أحد، لأنهنّ حرات بالفطرة، حرات بلا إيديولوجيا ولا نظريّات، "10 وبذلك يعكس الدمار في المكان دمار الجسد وضياع الهوية وتفتت الذات.

المدينة ليست رقعة جغرافية لها حدود فحسب ولا تعني مجموع العمران والبنيان والشوارع، بل هي مظهر من مظاهر الإبداع الإنساني، وفكرة شديدة المعاصرة ترتبط بالقرن العشرين ومنجزاته ¹¹ ترجم كلّ أفعال الفرد وتحركاته ، وعاداته وتقاليده وثقافته، تمثل الحياة بتعددتها وتنوعها وامتزاج الطبيعة بالإنسان حين " تتقاطع مشاهد الأزقة والساحات والمقاهي والحوانيت والمنازل والوجوه والروائح والأصوات لتشكل فضاء خصوصيا وإيقاعا خاصا، هو نفسه جوهر المدينة ، جوهر العلاقة اليومية مع المدينة وإن شئنا معنى المدينة "12 هذه الصورة هي إحدى تجلّيات رؤية الروائي للمكان، ومحاولة لكشف إبداع النصّ وتاريخه الثقافي.

يتحول المكان إلى فضاء إذا اخترقه الإنسان وعاش فيه وتفاعل معه، فلا تحضر شوارع سوريا أو مدنها وأزقتها كمجرد ديكور أو زينة تؤثث للحدث ، بل تبني الروائية علاقة حميمة مع التفاصيل الصغيرة التي توهم بواقعية الحكاية ، إنّها تمتد لتصف انسان تلك الفترة بعنفوانه وحبّه للطبيعة بألوانها المتعددة وفصولها المتباينة وشدة عنايته بالبيت المهّد الأول للوجود تقول: "كان حيّ محطة بغداد من أجمل أحياء حلب الخمسينيّات، ثلاثة شوارع واسعة متوازية، يقطعها عرضيا الشارع الذي يفصلها عن الحديقة العامّة، التي يتوسطها فراس الحمدانيّ، وتنتشر في أرجائها نوافير المياه، وأشجار راسخة من صفصاف، وسرو، ودردار، الجوري والورد البلدي بألوانه،... ويتعالى الياسمين فوق الأسوار بأبيضه، وأزرقه، وتمتدّ الرياحين على القضبان الحديدية التي وضعت لتتسلقها تلك الخضرة اللانهائية « ¹³.

تعيد الكاتبة بناء المرجع المكاني بصورة إبداعية تخيلية لغرفة الطفولة ، والنوافذ القديمة في بيت الجد في صيرورة بناء الكينونة، وإعادة تمثّل الهوية، تخلق الشخصيات بلغتها الخاصة وخيالها الخصب، فيتأتى المكان كفضاء محصل بالدلالات الواقعية والمتخيلة ومن خلالها تشرك القارئ وتجعله يعيش هذه

عائشة بوساحة / الصفحات: من 157 إلى 165

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

التجربة الجمالية الابداعية " فالبيت القديم هو بيت الطفولة هو مكان الألفة ومركز تكيف الخيال، وعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكره ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية، ذلك الاحساس بالجمالية والأمن الذين كان يوفرهما لنا البيت" ¹⁴ فهو يعكس السلوك البشري ويصنع ويحدد سمات الشخصية بطباعها وتصرفاتها التي ترفض التنازل عن صورة الجمال البهي لمدها، فغدت مكمنا للقوة النفسية والجسدية ومرتكزا لقيمه وأفكاره ولا غنى عنها ، تقول جمان " يقع بيت جدي في الطابق الأول، وله شبابيك على الشارع، بلا برندات، ... في الصيف نفتح الشبابيك القريبة من الشارع، وننام على هبوب نسيمات ليالي حلب العابقة بالجمال والبهجة والحياة" ¹⁵ "في هذا البيت الذي لا تفارق تفاصيله ذاكرتها يزهر بملامح الجمال الحضاري لشوارع واحياء البلد الصارخة بالمعنى الدلالي على الوجود

" تطل الأغصان على الساكنين، تصافح فناجين قهوتهم التي تدور في الصباحات والمساءات، حيث تقيم عائلات مسيحية ومسلمة، وبعض العائلات الأرمنية، والتي تصنف على أنها برجوازية حلب الكبيرة: آل الدلال، والصقّال، والكيالي و المارتيني، والصباغ والمدرّس، والعقاد، والطرابلسي، والعطار وفي محيطها نحو الشرق أحيا أكثر شعبية، واكتظاظا تسكنها البرجوازية الصغيرة والبروليتاريا، كحي الشيخ طه، والسريان، والأشرفية والشيخ مقصود وغيرهم من العرب القادمين من المنطقة الشرقية" ¹⁶.

اختزلت الرواية من ناحية أخرى القسوة والضياع الذي يعانيه الإنسان إذا ما سرق منه وطنه ، وعبرت عن مصيره في المنفى البارد، في قصة ناصر الذي يعيش انفصالا في ذاته وهويته، فهناك الكثير من الأسئلة المطروحة داخل المتن الروائي على لسانه، تثير الكثير من الإشكالات المتعلقة بالهوية ، تتحرك هذه الذات الضائعة داخل فضاء تتصارع فيه مجموعة من القيم المعكرة لحياة الفرد، وتشعره بمرارة الفقد، قال ناصر: أما أنا، فلا مدينة لي لتعلو أو تسقط، أو ليحارب أحد من أجلها، ... لا أعرف كيف يكون للمرء مدينة ينتمي إليها ويحنّ، مثلما انتهى إليها أبوه وجدّه ، وجدّ جدّه، فأصولي من مكان، ومسقط رأسي من مكان، وحياتي توزّعت بين أماكن مختلفة، قدرتي هو قدر فلسطيني نموذجي. " ¹⁷ وهي صورة للفرد العربي المنهك من توالي النكبات وتساقط المدن، جعل اللاجئ يعاني توترا نفسيا وقلقا بسبب عدم قدرته على الانسجام مع أفراد مجتمعه في أوطانه الجديدة ، أو التفاعل معهم لغويا وثقافيا وحضاريا، ما ترتب عنه حالة من الإنكار للنظم السائدة والأيديولوجيات القائمة والشعور بالاختلاف عنهم وعدم القدرة على التعايش بينهم " نسيت أنني لاجئ ، اللاجئون لا يخضعون للتقسيمات الطبقية التي تخصّ المجتمعات المستقرّة، هم بذاتهم طبقة، اللاجئ نائر بطبعه إلى أن يثبت العكس" ¹⁸ وتتكتفئ الأسئلة أكثر في مخيم الزعتري بالأردن هو مكان وساحة من الخيبة والصراع اليومي الذي يعيشه اللاجئون وسط فقدان الأمان والتوتر التي لزم الشخصيات بعد أن فقدت وجودها ومعتقداتها وطموحاتها وأحلامها وكانت ضحية للتحويلات السياسية في البلد.

يرى ادوارد سعيد بأن اللاجئ المنفي هو أكثر الأقدار مدعاة للكآبة وأن تلك الهجرات البشرية الضخمة التي ارتبطت بالحرب والكولونيالية والسعي نحو إزالتها والتطور الاقتصادي والسياسي وتلك الحوادث المدمرة مثل المجاعة والتطهير العرقي ومكائد القوى العظمى قد أدت إلى تغيير العلاقة بين المكان والمقيمين فيه¹⁹، وجعلت من استخدام اللغة شيئا أشد آنية وإلحاحا كما فرضت عليهم التأقلم مع هذا الواقع الجديد، لذلك وجدنا الكاتبة قد لجأت إلى استعادة ذاكرة المكان المفقود، خاصة وأنها شاهدة حية على كل القمع والاستبداد الذي تعرض له شعبها، وخلق علاقة من الحنين مع المدينة بحيث لا تنفصم عنها جغرافيا ولا كتابيا، تستمدّ منها الوعي الوطني والرؤية القومية وتتشبث بأشكال التعدد الثقافي الذي تزخر به المدن العربية الذي يشكل قوة اجتماعية وثقافية تواجه بها هذا المسخ الاستعماري في استراتيجيات التفكيكية المتعددة، وتظل مرجعا أساسيا لها مهما كانت حاضرة أو بائدة، في داخل الوطن أو في المنفى.

خاتمة

سعت الرواية إلى التعبير عن عالم المدينة بكل تناقضاته وصوره المختلفة، فهي الوعاء لكل الأحداث الاجتماعية والثقافية والسياسية التي مرت بالبلاد، فلم تكن حلب أو حمص أو الرقة مجرد رقعة جغرافية وقعت فيها الأحداث وتركت فيه الشخصيات، بل أسهمت بحضورها الفني المميز في هذا النص الروائي بما تحمله من أبعاد سياسية وتاريخية واجتماعية نفسية في خلق المعنى والدلالة ورسم ملامح الشخصيات وأبعادها، وإبراز الرؤية المعبرة عن موقف الكاتبة من الحياة وما ألمّ ببلادها من دمار شامل.

المدينة في رواية "سماء قريبة من بيتنا" لشهلا العجيلي هي كيان مثقل بالعواطف والمشاعر والمواقف والهموم والانفعالات، يمارس حركاته في النص كونه متصلا بالسلوك الإنساني، وعنصرا حيويا فعلا ازدادت قيمة حضوره بتداخل كل عناصر العمل في علاقات جدلية فاعلة، حيث صورت بجلاء مدى امتلاك الروائية لأدوات التشكيل الفني، وقدرتها على أنسنة المكان وبث روح الحياة في تفاصيله، والتأكيد على وجوده الحي والمتواصل في ذكريات وماضي أفرادها، وأملهم الدائم بلحظة زوال المرض الذي هتك بجسد الوطن والإنسان معا.

هوماش البحث:

ماجد الحاج محمد، أثر اللجوء في الأدب العربي المعاصر المأساة السورية أنموذجا، جامعة هكاري تركيا، العدد 11 في

²⁴ جوان 2020، ص 12

² المرجع نفسه، ص 12

عائشة بوساحة / الصفحات: من 157 إلى 165

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

Deنجوى قندقجي، نمّلات الجسد في رواية الحرب السورية بحث وداعي من حسان عباس، رصيف 2021/11/17،

rsseef22.net³⁴ شهلا العجيلي، سماء قريبة من بيتنا، منشورات ضفاف الاختلاف، لبنان، ط 2016م، ص 59⁵ المرجع نفسه، ص 83

محمد سمير عبد السلام، الأصالة الإبداعية فيما وراء الفضاءات المؤقتة للوجود في رواية سماء قريبة من بيتنا لشهلا

⁶ العجيلي، مقارنة تداولية، ديسمبر 4، 2021 ص 4⁷ حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1990. ص 33⁸ هلسا، غالب، المكان في الرواية العربية، دار ابن هانئ، دمشق، 1989 ص 24⁹ سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)، مهرجان القاهرة للجميع، 2004 د ط ص 84.¹⁰ شهلا العجيلي، سماء قريبة من بيتنا، مرجع سابق، ص 94¹¹ مختار علي أبوغالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، الكويت، 1995م، ص 8

حسن نجيب، شعرية الفضاء (المتخيل والرواية في الرواية العربية)، المركز الثقافي العربي، ط، 2000، 1 الدار البيضاء،

¹² المغرب، ص 143¹³ شهلا العجيلي، سماء قريبة من بيتنا، مرجع سابق، ص 38¹⁴ يوري لوتمان، وآخرين، جماليات المكان، عيون المقالات بانونغ الدار البيضاء، دار قرطبة، ط 2، 1988، ص 64¹⁵ شهلا العجيلي، سماء قريبة من بيتنا، مرجع سابق، ص 39¹⁶ المرجع نفسه، ص 38¹⁷ شهلا العجيلي، سماء قريبة من بيتنا، مرجع سابق، ص 96¹⁸ المرجع نفسه، ص 93

محمد السلوم، أدب اللجوء السوري الشتات والتعبير الأدبي، مركز حرمون للدراسات المعاصرة 31 كانون الثاني/ يناير

¹⁹ 2018، ص 3